الفصل السادس

الإعجاز العلمي والبلاغي
في حديث القرآن عن البحار واللؤلؤ

تمهيد :

إن آية الإعجاز في الكتاب المجيد أن يواكب حركة العقل البشري ، في عصوره المختلفة ، ليثبت له كل يوم أن ما أودعه الله ـ تعالى ـ في نصه المحكم من روائع البيان ، وحقائق العلم ، ومقاصد التشريع ، شهادة على أنه تنزيل من الخبير العليم ، الذي لا يخفى عليه شيء في أرضه ولا سمائه .

وعظمة القرآن تتجلى في كونه يقدم إلى كل عصر لونًا من الخطاب يناسب طاقاته الفكرية ، ويتوج منجزاته العلمية ، بما يهديه إليه من أسرار الخلق ، التي كانت خافية على من قبله ، ليجدد إيمانًا بوحدانية الله ، وإقرارًا بصدق ما أنزله على رسوله ، وليظل قوله تعالى ﴿ **سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ** ﴾ (فصلت:٥٣) أمرًا محكمًا ينسحب على كل عصر من عصور البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهذا معنى قوله تعالى ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ** ﴾ (الحجر:٩) إذ ليس حفظ الله لكتابه مقصورًا على بقائه محفوظًا في القلوب ، متلوًّا على الألسنة ، مسطورًا في الصحف ، فما هذا بملائم للوصف بالذكر ، الدال على انفعال المخاطب بهديه ، وتفاعله بما أودع الله في آياته من دلائل تُذكّرهُ ببديع صنعه ، وتلفته إلى

التفكر والبحث فيما أومأ إليه من أسرار خلقه ، مهتديًا بالأثر العظيم على وجود المؤثر الأعظم . وما كان الله ليمتن على هذه الأمة بحفظه كتابها الخالد لمجرد أن يبقيه متلوًّا مسطورًا ، فكم من سِفْر خطته يد البشر من قبل نزول القرآن ، ولا يزال باقيًا يقرؤه الناس ، ويحيطونه بالإجلال ، ويعدُّونه من مفاخر الفكر الإنساني .

إن وعد الله بتولي حفظ كتابه بنفسه دون أن يَكِلَ أمر حفظه إلى من أُنزل إليهم ، يعني أنه سيبقيه دليلاً حيًّا على أنه منزل من عنده ، شاهدًا على عجز البشر عن مداناته في نظمه ، وما تضمنه من حقائق العلم التي تتكشف للباحثين يومًا بعد يوم . ذلك ما تنبه إليه المحققون من المفسرين في فهمهم لمعنى الحفظ . يقول الطاهر بن عاشور : « وفي هذا ، مع التنويه بشأن القرآن ، إغاظة للمشركين بأن أمر هذا الدين سيتم وينتشر القرآن ، ويبقى على ممر الأزمان ، وهذا من التحدي ليكون هذا الكلام كالدليل على أن القرآن منزل من عند الله آية على صدق الرسول ﷺ ، لأنه لو كان من قول البشر ، أو لم يكن آية لتطرقت إليه الزيادة والنقصان ، ولاشتمل على الاختلاف »[1] .

لقد اقتضت حكمة الله تعالى ـ كي يظل للقرآن توهجه الدائم ، وقدرته على قدح زناد العقل في كل عصر ـ أن تكون منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . أما المحكمات فهي الواضحة الدلالة ، الظاهرة المعنى ، الخالية من الاحتمال والاشتباه ، وأما الآيات المشتبهات فهي المتعددة الاحتمالات ، التي تختلف الأفهام في تأويلها ، ويفسرها كلُّ عصر بما يتيسر له من المعارف ، وذلك ضرب من الثراء الذي تتزايد به الدلالات ، وتتكاثر به المعاني ، حتى قيل إن القرآن حمال أوجه . وهو بهذا يتيح للباحثين على الدوام مجالاً للاهتداء بإشاراته المبثوثة في آياته وسوره ، لاستجلاء أسرار الكون ، واستخدام أدوات عصرهم في الوصول إلى الحقائق العلمية التي سبق القرآن إليها .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٤ .

التقاء البحرين وتحاجزهما :

أكثر من أربعة عشر قرنًا وربع القرن مضت على نزول قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴾ (الفرقان:٥٣) ، وقد استقبلها أهل كل عصر بفهم يتناسب ومعطيات عصرهم ، دون أن يعوقهم قصور المعلومات التي بين أيديهم عن التماس الغاية منها ، ووجد الجميع في هذه الظاهرة آية من آيات الله الدالة على بديع قدرته في الخلط بين مائعين لكل منهما خصائصه ، دون أن يطغى أحدهما على الآخر . هذه هي الغاية التي لم يقصر أحد من المتأولين لكتاب الله في فهمها ، لكن الوقوف على الحقيقة العلمية ، التي تمنع امتزاج الماءين هي التي حجبها الله دهرًا ، وأبقاها سرًّا من أسراره ، فلم يُدرَك كنهُها حتى مطلع القرن العشرين ، حين تأهل العقل الإنساني بما تهيأ من وسائل الرصد والمراقبة لحركة البحار في مناطق مختلفة من العالم ، وتحديد الحاجز الفاصل بين الماءين ، الذي آمن به السابقون يقينًا ، ورآه المحدثون عيانًا . وكانت عظمة الإعجاز القرآني في صياغة العبارة بحيث أدرك منها المفسرون مُراد الله تعالى ، وحلقوا فيها بأخيلتهم إلى حد الاقتراب من الحقيقة العلمية التي اكتشفها العصر الحديث .

وقبل أن نعرض لمفردات الآية وتراكيبها ، ونقدم نماذج لفهم المفسرين لها ، لابد من الوقوف على سياق الآية في محيطها ، بوصفها لبنة في بناء متكامل ، يرسم لوحة بديعة ، تعكس ملامح قدرة الله تعالى من خلال ظاهرة الدوران المائي ، الذي لم يتنبه إليها أحد ممن اقتطعوا الآية من سياقها ، وغفلوا عن الخيط الدقيق الذي يربط هذه الآية بآية سابقة ، تتحدث عن أثر الرياح في سوق السحاب ونزول الأمطار ، التي يتكون منها ماء الأنهار على سطح الأرض ، ويتسلل إلى المحيطات عبر الينابيع في أعماق البحار ، فيلتقي الماء العذب بالماء الملح ، ويحافظ كل من الماءين على خصائصه ، وفق ما أجراه الله في

طبيعة كل منهما ، فلا يصير الملح عـذبًا ، ولا العـذب ملحًـا ، رغـم الاخـتلاط ووجود العوامل التي تدفع إلى الامتزاج .

فقبل هذه الآية جاء قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ (الفرقان:٤٨)، وهذا هو الجزء الأول من تكوين ظاهرة الدوران المائي ، ثم يجيء قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾ فتكون «ال» في البحرين مشيرة إلى ماء المطر ، المتسلل إلى أعمـاق البحـر المكوِّن للينابيع العـذبة الـتـي سميت بحرًا لكثرتـها ، وهذا ما يسميه علماء البلاغة بلام العهد الذكري ، لأن الماء سبق ذكره في الآية السابقة ، ثم تشير «ال» إلى العهد العلمي في البحر الملح ، لأن لفظ البحر إذا أطلق ، فإنما يدل بأصل وضعه على الماء المالح ، الذي يغطي معظم سطح الأرض ، وبذلك تكون أداة التعريف في «البحرين» دالة على الماء العذب المذكور لفظًا ، وماء البحار والمحيطات المعهود في الذهن عند إطلاق لفظ البحر ، وذلك واضح في عطف قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ ﴾ على قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ ، إذ هناك علاقة واضحة بين إنزال الماء من السماء ، ومَرْج البحرين ، كأنه قال : إن الله هو الذي أنزل الماء من السماء ، وهو الذي أجراه ينابيع في البحر ، وخلط ماء البحرين ، وجعل بينهما حاجزًا . وهذه هي ظاهرة الدوران المائي ، كما فسرتها النشرة الصادرة من مكتب شئون الإعلام لنائب رئيس مجلس الوزراء بدولة الإمارات العربية المتحدة ، تلخيصًا للندوة التي أقيمت فيها حول «استخراج المياه العذبة من أعماق البحار» ، وحاضر فيها متخصصون عالميون من كبريات الشركات التي تعمل في مجال اكتشاف الينابيع في البحار ، واستخراج الماء العذب منها ، حيث جاء بها ؛ تفسيرًا لظاهرة الدوران المائي : «فهناك المحيط (أصل الماء) والشمس التي تُحْدث التبخر ، وهذا التبخر يُحْدث سحبًا ، والسحب تتحول

إلى ماء مكثف يتهاطل على الأرض ، ويصل إلى المحيطات عبر الينابيع الموجودة في أعماق البحار . . . هذه الأمطار تتخذ شكل أنهار وينابيع فوق سطح الأرض ، وتجري مائة مليار منها في الدورة المائية التي تحدث في الأعماق » [١].

ثم يقول المحاضر : « بإمكاننا تتبع الدورة المائية في الأعماق حتى خروجها تحت البحر ، وفي هذا الوقت ترتفع المياه إلى السطح ، لأن المياه العذبة أخف من مياه البحر . . . إن تكدر المياه العذبة ناجم عن التداخل بين المياه العذبة ، ومياه البحر الناشئ عن اختلاف كثافتهما » [٢].

إن ما ذكر في هذه الندوة لا يعدو أن يكون تفسيراً لظاهرة الدوران المائي ، كما حكاها القرآن بكل دقة منذ قرون عديدة ، حينما كان البحر عالمًا مجهولاً للإنسان ، لا يعرف عنه سوى أنه مصدر للغذاء ، واستخراج أدوات الزينة ، ووسيلة من وسائل النقل ، أما ما يحدث في أعماقه فقد كان مليئًا بالأساطير والخرافات .

إن تعبير القرآن بالمَرْج ، وهو الخلط والاضطراب ، تجسيد دقيق للحركة التي تحدث داخل البحر ، حين تتدفق الينابيع العذبة ، وتواصل ارتفاعها إلى سطح البحر ، بحكم اختلاف الكثافة بين الماءين ، محدثة الكدرة التي تظهر على المياه العذبة ، نتيجة التداخل بينهما ، وهو كذلك تجسيد لظاهرة أخرى حين تختلط مياه الأنهار التي تجري على سطح الأرض بماء البحار عند مصبات الأنهار ، متأثرة بعوامل المد والجزر ، والتيارات البحرية ، وشدة الأمواج . هذه الحركة بما يصاحبها من القلق والاضطراب الذي يحدث عند التقاء الماءين ، اختصرها القرآن في لفظة واحدة هي « مَرَجَ » ، التي يدل أصل مادتها على

---

(١) « عرض عن مجموعة جيوسيان ومؤسسة ميمفيا للماء» بيبربيكر ، ص٢ ندوة استخراج المياه العذبة من أعماق البحار ، مكتب شئون الإعلام لنائب رئيس مجلس الوزراء ، أبو ظبي عام ٢٠٠٦ .

(٢) « عرض عن مجموعة جيوسيان ومؤسسة ميمفيا للماء»، ص ٣ .

المجيء والذهاب والاضطراب ، ويستحضر في الذهن حركة الدواب النشطة في مراعيها[1] .

ويدهشنا إعجاز النظم في الآية الكريمة ، حين يقدم الماء العذب على الملح في قوله : ﴿ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ، حيث قدم اسم الإشارة الذي يستحضر ماء المطر المذكور في قوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ ، وأخَّر اسم الإشارة الدال على الملح المعهود في الذهن ، والمذكور لفظًا أقرب من المعهود ذهنًا ، ولكنه عبر عنهما معًا باسم الإشارة للقريب ، تنبيها على تقاربهما وتجاورهما في مرأى العين ، وذلك ما أشار إليه برهان الدين البقاعي في كتابه «نظم الدرر» ، فقال : «ولعله أشار بأداة القرب في الموضعين ، تنبيهًا على وجود الموضعين مع شدة المقاربة ، لا يلتبس أحدهما بالآخر» [2].

والعجيب في هذا النظم القرآني أنه يقسم المعاني على الألفاظ قسمة بالغة الدقة ، ليعكس التوازن في اللفظ ما أراده الله تعالى من التوازن في المعنى . فلما كان كل من البحرين قائمًا بنفسه ، محتفظًا بخصائصه من حيث الكثافة ودرجة الحرارة والطعم وخصوصية الأحياء التي تعيش فيه ، لا يبغي أحدهما على الآخر ، أو يغير من خصائصه ، جاء النظم قسمة متوازنة في وصف كل منهما ، وفي عدد الكلمات ، وأوزانها ، ليساوق التوازنُ اللفظي التوازنَ المعنوي ، ويتعاون إعجاز النظم مع إعجاز العلم في إبراز هذه الظاهرة الكونية ، الناطقة بعظمة مكوِّنِها ، فكل منهما استحضره القرآن باسم الإشارة للقريب ، و«عذب» في مقابلة «ملح» ، وهما متضادان ، وعلى وزن واحد ، وكما وُصف الأول

---

(١) ينظر مقاييس اللغة ، ابن فارس ، ٣١٥/٥ تحقيق : عبد السلام هارون ـ دار الكتب العلمية ، والقاموس المحيط ، الفيروزأبادي ، ٢١٤/١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ط٢ ، عام ١٩٥٢م .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين أبو الحسن البقاعي ، ٣٢٨/٥ بيروت ، عام ١٩٩٥م .

بالفرات ، وهو الشديد العذوبة ، وُصِف الثاني بالأجاج وهو الشديد الملوحة ، وكلاهما على وزن واحد كذلك ، وهذا ما يتفرد به النظم الحكيم في تقسيم المعاني على الألفاظ بالقسطاس المستقيم .

تصور المفسرين القدامى لحقيقة مَرْج البحرين :

كيف تصَوَّرَ المفسرون القدامى حقيقة مَرْج البحرين؟ وإلى أي مدى اقتربوا من هذه الحقيقة العلمية التي اكتُشفت في العصر الحديث؟

إن المتتبع لآراء علمائنا السابقين يحس بالدهشة والفخار معًا حين يرى أن تصَوُّرَهم لمراد الله ـ تعالى ـ في الآية كان قاب قوسين أو أدنى من الحقيقة العلمية ، التي لم تكتشف إلا بأخرة من الزمن ، وهو ضرب من الإلهام ، الذي ينفثه الله في روع من يديم التأمل في أعطاف النص القرآني . فما هما البحران اللذان مرجهما الله؟

نقل ابن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز» رأيًا مدهشًا قال فيه : «وقال ابن عباس : هو مطر السماء ، سماه بحرًا ، وبحر الأرض . والظاهر عندي أن قوله تعالى (البحرين) يريد بهما نوعي الماء : العذب والأجاج ، أي خلقهما في الأرض ، وأرسلهما متداخلين في وضعهما على الأرض ، قريب بعضهما من بعض ، والعبرة في هذا التأويل مثيرة ، وأنشد منذر بن سعيد :

وَمَمْزُوجَةُ الْأَمْوَاهِ لاَ الْعَذْبُ غَالِبٌ عَلَى الْمِلْحِ طِيبًا لاَ وَلاَ الْمِلْحُ يَعْذُبُ[1]

هذا التأويل المثير من ابن عباس ـ على حد وصف ابن عطية ـ فيه إشارة واضحة إلى نظام الدوران المائي ، الذي يؤدي إلى وجود الينابيع العذبة في البحار واختلاطها بأمواهها ، دون إخلال بخصائص كل منهما ، أو طغيان أحد الماءين على الآخر ، وهو ما أثبتته أحدث الدراسات المعاصرة ، القائمة على الرصد والتجريب ، ولاشك أنه يمثل سبقًا في تصور المعنى ، وإن أعوزه ما أتيح لعصرنا من وسائل تعين على الاكتشاف والتحقق .

---

(١) المحرر الوجيز ، ابن عطية ، ٣٢٩/١٥ ، تحقيق : المجلس العلمي بتارودانت ، عام ١٩٩١م .

ومثل هذا ، بل أشد وضوحًا ، ما حكاه البغوي في قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ : «وقيل نسب اللؤلؤ إليهما لأنه قد يكون في البحر الملح عيون تمتزج به فيكون اللؤلؤ من ذلك» [1]، وهو صريح في أن البحر به ينابيع عذبة تختلط بمياه البحر ، على ما قررته الدراسات الحديثة ، مما يشهد بالنفاذ إلى أعماق النص القرآني ، والاقتراب من إعجازه العلمي ، وإن ظل رأيًا قائما على الحدس ، مفتقرًا إلى المشاهدة والتجريب .

الإعجاز في البرزخ الحاجز بين البحرين :

إن التعبير بالبرزخ عن المانع الذي يحول بين امتزاج البحرين وتغلب أحدهما على الآخر ، هو آية كبرى من آيات الإعجاز العلمي في الآية الكريمة ، ذلك أن البرزخ في دلالته اللغوية : «ما بين كل شيئين» أو «الحاجز بين الشيئين» [2] ، وسمي الحاجز الزمني بين الدنيا والآخرة برزخًا ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون:١٠٠) قال صاحب القاموس القويم للقرآن الكريم : «أي حاجز يحجزهم عن الرجوع إلى الدنيا إلى يوم القيامة ، وتسمى فترة القبور فترة البرزخ ، فمن مات فقد دخل إلى يوم القيامة» [3] .

فإيثار القرآن للبرزخ هنا يدل على أن هناك مسافة تفصل بين البحرين ، وتمثل حاجزًا طبيعيًّا يكتسب ماؤه صفات مغايرة للبحرين ، ويمنع طغيان أحدهما على الآخر ، وذلك ما توصل إليه علم البحار الحديث ، وليس ثمة لفظ آخر يجسد هذه الحقيقة العلمية ، كما جسدها التعبير بالبرزخ . يقول الدكتور زغلول النجار : «جميع النظم النهرية التي تصب في بحار تتميز بتداخلات معقدة بين كل العمليات النهرية والبحرية ، منها عمليات المد

---

(١) نظم الدرر ، ٦/٢١٠، ٢١١ .

(٢) لسان العرب ، ١/٢٥٦ .

(٣) القاموس القويم للقرآن الكريم ، إبراهيم أحمد عبد الفتاح ، ١/٦٤ ، مجمع البحوث الإسلامية ، عام ١٩٨٣م .

والجزر التي تعمل على اختلاط الماءين ، كونه ماء متوسط الملوحة يفصل بين هذين الماءين ، خاصة في حالة التدفقات النهرية الضعيفة ، وتزداد عمليات الخلط بين ماء النهر وماء البحر كلما توغلنا في داخل البحر ، حتى يتحول الماء إلى الطبيعة البحرية الكاملة ، تاركًا وراءه مراحل من الماء القليل الملوحة تعمل كفاصل بين الماءين . كذلك تساعد عمليات المد والجزر على تجمع الرسوبيات التي يلقي بها النهر على هيئة حواجز رسوبية ، على مسافات من مصب النهر ، ومتصلة بفم النهر ، بواسطة حواجز طولية ، موازية لاتجاه تدفق النهر تحول دون امتزاج مائه بماء البحر » [١] .

فالحاجز الذي يفصل البحرين عند مصبات الأنهار يجمع بين حواجز رسوبية وحواجز مائية في منطقة البرزخ ، حيث تكتسب المياه فيها خصائص أخرى تختلف عن خصائص البحرين العذب والملح ، وربما كان هذا التنوع في الحواجز الحائلة دون امتزاج البحرين سببًا في اختلاف تصورات المفسرين ، بين قائل بأن الحاجز هو الأرض التي تحول دون تمازجهما على الرغم من تقاربهما الشديد[٢] ، وقائل بأن الحاجز « غير مرئي ، من قدرته كما قال تعالى ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ » [٣] ، وأصاب بعضهم الحقيقة على نحو يقترب مما أثبتته الدراسات الحديثة ، مثلما جاء في تفسير البحر المحيط : « قال الزجاج : فهما مختلطان في مرائي العين ، منفصلان بقدرة الله ، وسواد البصرة ينحدر الماء العذب منه في دجلة نحو البحر ، ويأتي المد من البحر فيلتقيان من غير اختلاط ، فماء البحر إلى الخضرة الشديدة ، وماء دجلة إلى الحمرة ، فالمستقي يغرف من ماء دجلة عندنا لا يخالطه شيء ، ونيل مصر في فيضه يشق البحر المالح شقًّا ، بحيث يبقى نهرًا جاريًا أحمر في وسط البحر المالح ، فيقولون هذا ماء ثلج ، فيسقون من وسط البحر » [٤] .

---

(١) مقال منشور على الموقع الإلكتروني للدكتور زغلول النجار .
(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٣٢٢/٣ ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة .
(٣) تفسير أبي السعود ، ٢٢٥/٦ ، دار إحياء التراث ، بيروت .
(٤) البحر المحيط ، أبوحيان ، ٥٠٦/٦، ٥٠٧ ، دار الفكر ط عام ١٩٨٣م .

تلك ملاحظات تعتمد على المشاهدة ، وتصف الظاهرة وصفًا علميًّا دقيقًا ، وتستبطن النص القرآني استبطانًا صحيحًا ، فتبرز عامل المد والجزر الذي يدفع إلى اختلاط الماءين ، وترصد عدم الامتزاج بينهما ، وكيف احتفظ كل ماء بخصائصه في الطعم واللون ، حيث الحمرة التي يتميز بها الماء العذب في نهري دجلة والنيل حين يلتقيان بماء الخليج والبحر الأبيض ، واحتفاظه بعذوبته في وسط البحر ، وقول الناس وهم يستقون منه إن هذا ماء ثلج ، في إشارة واضحة إلى مصدره وهو المطر ، كل ذلك مما سجله المحاضرون في « ندوة استخراج المياه العذبة من أعماق البحار »؛ « فحمرة الماء العذب ، هي نفسها الكدرة التي تعلوه عند التداخل مع مياه البحر ، والتي تظهر على هيئة بقع ، كما جاء في نشرة الندوة ».

ومن المبهر في دقة ملاحظات المفسرين ما نقله برهان الدين البقاعي في كتابه « نظم الدرر » عن وصف البرزخ : « وقال ابن برجان : البرزخ ما ليس بصريح هذا ، ولا بصريح هذا » [1]، ومثار الدهشة في هذا القول أنه هو نفسه الذي فُسِّر به الحاجز في آخر ما توصل إليه علم البحار ، اختصره ابن برجان في جملة واحدة ، مثبتًا أن الحاجز مائي ، وهو مغاير في خصائصه لما يجاوره من الماءين ، فلا هو بالعذب ، ولا هو بالملح ، ليمثل منطقة عازلة بين البحرين ، تقوم بدور الحائل بينهما ، حتى لا يطغى أحدهما على الآخر ، وذلك هو ما قاله الدكتور زغلول النجار : « كل تجمع مائي يمكن أن يسمى بحرًا ، والبحر العذب الفرات ، أو شديد العذوبة هو النهر ، والبحر الملح الأجاج ، أو شديد الملوحة هو المحيط أو البحر المالح ، وبهذا خرج ماء المصب ، لأنه مزيج من الملوحة والعذوبة ، فلا ينطبق عليه وصف (عذب فرات) ولا (ملح أجاج) وبهذه الأوصاف تحددت حدود الكتل المائية الثلاث : ماء النهر ، وماء البحر ، وبينهما ماء منطقة المصب ، التي وُصفت في الآية

---

(١) نظم الدرر ، ٣٨٢/٧ .

الكريمة بكونها برزخًا أو حاجزًا يمنع طغيان صفة ملوحة البحر على النهر ، أو عذوبة النهر على البحر »[1].

والمتأمل فيما قاله الدكتور زغلول النجار يجد أن هذا الكلام نفسه هو ما جاء في تفسير علمائنا القدامى ، وكأنهم اطلعوا على ما أثبتته الدراسات الحديثة اليوم . يقول الألوسي : « وقيل المراد بالبرزخ الواسطة ، أي وجعل بين البحر العذب الشديد العذوبة والبحر الملح الشديد الملوحة ماء متوسطًا ، ليس بالشديد العذوبة ، ولا بالشديد الملوحة ، وهو قطعة من العذب الفرات عند موضع التلاقي مازجها شيء من الملح الأجاج ، فكسر سَوْرة ملوحتها ، وقطعة من الملح الأجاج عند موضع التلاقي أيضًا مازجها شيء من العذب الفرات ، فكسر سَوْرة ملوحتها ، ويكون التنافر البليغ بينهما المفهوم من قوله سبحانه ﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ فيما عدا ذلك ، وهو ما لم يتأثر بصاحبه منهما ، بل يبقى على صفته من العذوبة الشديدة والملوحة الشديدة »[2] .

لذلك قال المفسرون إن تنكير « برزخًا » في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ يفيد التعظيم ، أي أنه برزخ عظيم ، لما تضمنه من عجائب قدرة الله تعالى في انفراده بخصائص فريدة ، تمكنه من القيام بدور المنطقة العازلة بين البحرين ، ويمنع تغلب أحدهما على الآخر ، كما يمنع اقتراب الكائنات الحية التي تعيش في البيئتين المحيطتين بالمنطقة العازلة ، أو انتقال الكائنات التي تعيش في منطقة البرزخ إلى البيئتين الأخريين ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ ، حيث فسره الفراء بقوله : « أي حرامًا محرمًا أن يغلب أحدهما صاحبه »[3] ، وفسره القاسمي : « أي منعًا من وصول أثر أحدهما إلى الآخر ، وامتزاجه به حتى بعد دخول أحدهما في الآخر مسافة »[4] .

---

(١) من مقال للدكتور زغلول النجار منشور على موقعه في الشبكة الدولية .

(٢) روح المعاني ، الألوسي ، ٣٥/١٩ ، بيروت ، عام ١٩٨٥م .

(٣) معاني القرآن ، ٧٠/٢ .

(٤) محاسن التأويل ، ٤٥٨٣/١٢ .

وتعبيره بالمنع من وصول أثر أحدهما إلى الآخر غاية في الدقة ؛ لأن الماءين متصلان بالفعل ، ولكن البرزخ هو الذي يحول دون تجاوز أثرهما ، فيمنع كُلاً منهما من مجاوزة حده ، لتبقي البيئات الثلاث متحاجزة ، وهو السر في أن القرآن لم يكتفِ بقوله : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ حتى أضاف نعتًا آخر إلى البرزخ يفيد به التحاجز بين كتل المياه الثلاث ، فيكون البرزخ حرامًا ومحرمًا في آن واحد .

ولعظمة هذا الوصف ، البالغ الدقة لظاهرة الدوران المائي ، بدءًا بإرسال الرياح اللواقح التي تثير السحاب ، وانتهاء بتحاجز البحرين بعد التقائهما ، واختلاط أمواجهما ، وسَّط الله بين الآية التي تتحدث عن نشأة الماء العذب من الأمطار ، والآية التي تتحدث عن مرج البحرين ـ وسَّط فجأة آية تتحدث عن القرآن ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (الفرقان:٥٠) ، والمفاجأة في أن الضمير في «صرفناه» للقرآن ، ولم يسبق له ذكر ، والمعنى صَرَّفنا القول فيه بما يجعل الناس على ذكر دائم بما حواه من دلالات علمية تشهد بإعجازه ، وتؤكد ما أودع الله فيه من غيوب كانت خافية قرونًا متطاولة حتى أذن الله بكشفها تحقيقًا لوعده ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ﴾ وهي كفيلة بأن تذكر الناس بنعم الله عليهم ، وبصدق ما أرسله على رسوله ، فأبى أكثر الناس إلا كفورًا . فكانت هذه المفاجأة بالحديث عن القرآن ، واستحضاره بضمير الغائب أثناء الحديث عن الآيات الكونية ، لفتة إلى ما اختص الله به القرآن من دلائل الإعجاز العلمي ، التي يكتشف منها كل عصر بقدر طاقاته ومقدار ما آتاه الله من العلم .

الإعجاز في آيات الحِلية :

تعددت الآراء في فهم الآيات التي تحدثت عن استخراج اللؤلؤ والمرجان من البحرين العذب والملح ، واستغلها الملحدون في التشكيك ، وادعاء مخالفة القرآن للحقائق العلمية ، وهو زعم منشؤه عدم التمكن من فهم الدلالات اللغوية ، والإشارات الدقيقة التي يلمح إليها اختلاف النظم بين الآيات ،

وما يهمس به سياقها ، فضلاً عن عدم الإلمام بما أسفرت عنه الدراسات الحديثة من تجاور الماءين : العذب والملح في البحار ، حين تتفجر في قاع البحر ينابيع تحمل الماء العذب ، المتسلل إلى أعماقها من مياه الأمطار مع احتفاظ كل من الماءين بخصائصه من العذوبة والملوحة .

ولنبدأ بالوصف العلمي للؤلؤ والمرجان وموطنهما الذي يستخرجان منه ، وهو ما لم يكن مجهولاً لدى الغواصين العرب ، الذين يقومون باستخراجه .

فما اللؤلؤ؟ ومن أين يستخرج؟

يقول الدكتور زغلول النجار في مقال نشر بجريدة الأهرام : « اللؤلؤ عبارة عن كريات صلبة ناعمة من كربونات الكالسيوم ، لها بريق وتقوز لوني مبهج ، تنمو بداخل أصداف طائفة خاصة من قبيلة الرخويات تعرف باسم مزدوجات المصراع ، وهي حيوانات مائية تعيش في كل من الماء الملح والماء العذب ، ويستخدم اللؤلؤ كإحدى الجواهر النفيسة ، ولكن المرجان هو حيوان بحري لا يحيا إلا في الماء الملح ، ويتبع طائفة الزهريات ، وهي من طوائف قبيلة جوفيات المعى التي غالبًا ما تعيش في مستعمرات كبيرة . . . وتكوِّن هياكل المستعمرات الكبيرة شعابًا ضخمة تعرف باسم الشعاب المرجانية ، وتكثر في البحار الضحلة الدافئة ، ومنها المرجان الأحمر الذي يُتخذ ضمن المعادن شبه النفيسة » . هذه هي الحقيقة العلمية[1] ، كما انتهت إليها أحدث الدراسات في علم البحار ، فهل ناقضها القرآن في الآيات التي تحدثت عن استخراج الحلية من البحرين؟

كل من تحدث عن استخراج اللؤلؤ والمرجان في القرآن وقف عند آيات سورة الرحمن الصريحة في إخراج اللؤلؤ والمرجان من البحرين ، مع أن هناك آية أخرى في سورة فاطر ، تحدثت عن استخراجهما كذلك من غير تصريح ، وواجب الباحث المدقق أن يقارن بين كل الآيات التي تناولت الموضوع ، ويقف على اختلاف التعابير والألفاظ ، التي يعمد القرآن إليها ،

(١) من مقال للدكتور زغلول النجار منشور على موقعه من الشبكة الدولية .

للتمايز بين المدلولات في المواضع المختلفة ، بحكم أن القرآن يفسر بعضه بعضًا .

وبتتبع الآيات التي تحدثت عن التقاء البحرين أو ما يستخرج منهما تطالعنا ثلاثة مواضع في القرآن :

أولها قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (الفرقان:٥٣) ، والحديث في هذا الموضع اقتصر على إبراز قدرة الله ـ تعالى ـ في الخلط بين ماءين مختلفي الخصائص ، وخلق حاجز بينهما يمنع امتزاجهما ، حتى يظل كل منهما يؤدي غرضه في تلبية حاجات الإنسان ، الذي سخر الله له البحار والأنهار . ولم تتعرض الآية لما في البحرين من الكائنات الحية التي تعيش فيهما ، والآية صريحة في أن البحرين اللذين مرجهما الله أحدهما عذب والآخر ملح .

والموضوع الثاني هو قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن:١٩-٢٢) .

وهو هنا يتحدث عن آيتين من آيات القدرة الإلهية : أولاهما الخلط بين بحرين مختلفين في طبيعتهما وخصائصهما ، وحجز الله بينهما بفاصل مائي يحول دون طغيان أحدهما عن الآخر ، والثانية : هي إخراج الله تعالى منهما أغلى وأنفس الجواهر ، التي تلبي أشواق الناس من الزينة والجمال .

وبالمقارنة بين الموضعين نلاحظ ما يلي :

أولاً : أن الموضع الثاني من آيات الرحمن لم يصرح فيه بأن أحد البحرين عذب والآخر ملح ، وذلك ملمح من ملامح الإعجاز الإلهي في اتساع مفهوم الآية لمنجزات العلم الحديث ، التي توصلت إلى أن البحر الواحد يضم كتلاً مائية مختلفة في صفاتها الطبيعية والكيميائية ، من حيث درجة كثافتها ، وحرارتها ، وملوحتها ، والأحياء المائية التي تعيش فيها ، تفصل بينها حواجز

من صنع الله تحول دون المزج بين هذه الكتل ، التي تمثل بحارًا مختلفة ، دون أن تطغى كتلة منها على خصائص الكتلة المجاورة لها . وهذه حقيقة علمية لم تكتشف إلا في القرن العشرين ، فإذا جاء قول الله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ لم يكن ثمة تعارض بين ما هو ثابت من أن اللؤلؤ والمرجان يعيشان في البحار الملحة ، لأن البحرين اللذين مرجهما الله كلاهما ملح ، وذلك هو السر في أن الله تعالى لم يصرح هنا بأن أحد البحرين عذب والآخر ملح ، كما صرح في آية الفرقان التي لم تتحدث عن استخراج اللؤلؤ والمرجان منهما ، وذلك ـ لعمري ـ قمة الإعجاز في النظم والفهم معًا ، حيث إن القرآن يعمد إلى الألفاظ ذات الدلالات الواسعة ، حمالة الأوجه في تأويلها ، والبعد عن التفاصيل الدقيقة في حديثه عن الكونيات ، التي علم الله ـ تعالى ـ أن حقائقها العلمية لا يستوعب العقل البشري تفاصيلها في بعض العصور ، ويستوعبها في عصور أخرى حين يمتلك من الأدوات والوسائل ما يمكنه من رؤية دقائقها ، وبذلك يتحاشى القرآن الصدام مع العقل في عصور القصور عن إدراك ما خفي من دقائق العلم من جانب ، ويتسع من جانب آخر لكل الحقائق العلمية الصحيحة ، التي يصل إليها العقل بالبحث والتجريب في عصور الرقي الحضاري والازدهار العلمي ، دون أن يصطدم بالحقيقة العلمية الصحيحة في أي عصر من العصور ، وهو نفس ما اتبعه القرآن في كل الآيات الكونية ، التي لم يكن العقل البشري يطيق فهم دقائقها في عصر المبعث ، فجاء الحديث عنها إشارات وتلميحات ، مثل دوران الأرض ، وتلقيح الرياح للسحب ، والفرق بين الضوء الذاتي وانعكاسه في الحديث عن الشمس والقمر ، غير ذلك من الآيات الكونية التي لم تظهر حقائقها العلمية إلا في العصر الحديث ، بعد أن سبق القرآن إليها في وقت كان يعجز العقل عن مجرد تخيلها إبَّان نزولها .

إن تصريح القرآن في آية الفرقان باختلاف البحرين في طعمهما عذوبة وملوحة ، دون ذكر لما يستخرج منهما ، وعدم التصريح باختلافهما في آيات الرحمن ، مع التعرض لما يستخرج منهما ، دليل على أن البحرين كلاهما

ملح ، وأن الاختلاف بينهما في الصفات الطبيعية والكيميائية بقرينة استخراج اللؤلؤ والمرجان منهما ، لأن المرجان لا يستخرج من الماء العذب .

والموضع الثالث الذي تحدث فيه القرآن عن البحرين هو قوله تعالى في سورة فاطر : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ** ﴾ (فاطر:١٢) .

وفي هذه الآية يتعانق الإعجاز البلاغي مع الإعجاز العلمي ، حيث يستخدم القرآن في نظم الآية لفظًا دقيقًا لا يتعارض مع الحقيقة العلمية ، ويُحدِث في العبارة نوعًا من التوازن في منافع البحرين ، فتأتي المعاني مقسومة بدقة بالغة على الألفاظ ، مستوعبة لما غاب عن الأعين من أسرار الأرض ، مشبعة نَهَم الباحث عن الجمال الظاهر ، والباحث عما خفي من دقائق المعاني .

ونلاحظ في الآية أنها تقيم موازنة بين البحرين العذب والملح ، دون أن تذكر تجاورهما أو التقاءهما ، وإنما تتحدث عن منافعهما واختلاف صفاتهما الطبيعية،ولذلك وجدنا زيادة في وصف المياه العذبة لم نجدها في آية الفرقان، وهي قوله تعالى : ﴿ **سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ** ﴾ وهي أهم المنافع في الماء العذب ، الذي به قوام الحياة البشرية واستمرار بقائها ، وذلك ما ينفرد به الماء العذب ، لأن ماء البحر بملوحته ، وما فيه من حرقة عبر عنها القرآن بالأجاج ، لا يستطيع الإنسان تجرعه ولا يطفئ ظمأه ، بل يزيده عطشًا ، ثم تحدثت الآية عن المنافع المشتركة ، وذكرت منها اثنتين : إحداهما : أنهما معًا مصدر للحوم البحرية ﴿ **وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا** ﴾ والثانية كونهما مستودعًا للزينة والحلي ﴿ **وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا** ﴾ ، ثم أفردت الآية البحر الملح بحمله السفن الضخمة ، التي أضحت الآن فنادق عائمة تحمل الناس والأمتعة وثمرات العقول ، وما أودع الله في الأرض والبحار من المعادن والنفط وغير ذلك ، ﴿ **وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ** ﴾ ، حيث الضمير يعود على البحر وحده دون

النهر ، لا لأن النهر يعجز عن حمل الفلك ، ولكن لأن قدرته محدودة في حمل السفن الضخمة التي تشبه الجبال العائمة ، كما صورها القرآن في سورة الرحمن ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾،لذلك قال القرآن ﴿ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ ولم يقل « فيهما » ليعود الضمير على البحرين ، وبذلك أحدث نظم الآية الكريمة نوعًا من التوازن بين البحرين ، فأفردت العذب بالشرب ، وقابلته بإفراد الملح بحمل السفن الضخمة ، التي تجري في البحر بما ينفع الناس .

أما ما يتعلق بالإعجاز العلمي في الآية فإن القرآن عبر عن اللؤلؤ والمرجان بالحلية ، دون التصريح بهما فقال ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ففي كل من البحرين حلية ، حيث يستخرج اللؤلؤ من العذب والملح ، والمرجان من البحر فحسب ، فلو أن القرآن قال : « وتستخرجون اللؤلؤ والمرجان»، لاصطدم ذلك بالحقيقة العلمية التي تؤكد أن الشُّعب المرجانية لا توجد إلا في البحر الملح ، وهذا يفسر لك كيف أن القرآن صرح في آية الرحمن باللؤلؤ والمرجان ، ولم يصرح بأن البحرين أحدهما عذب والآخر ملح ، ليوحي بأن البحرين هما من الكتل المائية المتحاجزة في البحر ، المحتفظة بخصائصها . وحين صرح هنا في آية فاطر بأن البحرين هما العذب والملح عبَّر بالحلية ، لينطبق اللفظ على ما يخرج من العذب والملح معًا ، حيث إن اللؤلؤ حلية تُستخرج من كليهما ، لكن المرجان حلية تستخرج من الملح دون العذب ، ولا تصادم بين تعبير القرآن وما توصل إليه علم البحار الحديث . وبين التعبير بالحلية والتعبير باللؤلؤ والمرجان تكمن حقيقة إعجاز القرآن ، فسبحان من أنزله كتابًا أحكمت آياته ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومن المدهش حقًّا أن الله حين تحدث عن مشاهد الجمال في السورة ، ووصف نعيم أهل الجنة ، ذكر اللؤلؤ وحده دون المرجان ، وهو يستخرج من البحرين معًا ، فقال في الآية الثالثة والثلاثين من سورة فاطر : ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (فاطر:٣٣) ، وحين تحدث عن وصف الحور في سورة الرحمن قال : ﴿ كَأَنَّهُنَّ

﴿ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن:٥٨) ، تلاقيًا مع ما يختص به البحر الذي ورد الحديث عنه في هذه السورة ، مع أن المراد وصف الحور بالبياض بعد وصفهن بالياقوت ، واللؤلؤ هو الأخص في هذه الصفة حتى اضطر علماء التفسير إلى القول بأن المراد بالمرجان هو صغار اللؤلؤ أو كباره .

فهل كل هذا يخضع للمصادفة أم أنه حكمة التنزيل المجيد الذي يختار أنسب الألفاظ لأنسب المعاني؟!

لقد صرح القرآن بذكر اللؤلؤ ست مرات ، واحدة منها فقط في مجال الامتنان باستخراجه من البحر والدلالة على كمال صنع الله في أن يستخرج من البحر المالح ما هو آية في الجمال وإمتاع النظر ، إلى جانب الاستمتاع بأطيب أنواع الغذاء ، دون أن تؤثر ملوحته على الأحياء التي تعيش فيه ، ليخرج منه أطيب الغذاء وأغلى النفائس من الجواهر .

أما الآيات الخمس الباقية التي صرح فيها القرآن باللؤلؤ ، فجاءت جميعها في مجال الاستمتاع بالجمال ، وتلبية حاجات النفس والروح بما يؤنسهما من مناظر الحسن المبثوثة في كون الله ، وهي متعة أشهى إلى النفس من لذة الطعام والشراب ، لذلك نصب الله معارض للجمال في القرآن ، تعتمد على إمتاع العين بكل ما يسر النفس والقلب من بدائع صنع الله في السماء والأرض ، وهي جميعًا تركز على مواطن الحسن فيها ، كما هو صريح قوله تعالى في وصف الإبل : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (النحل:٦). وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ (ق:٦) وقوله : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ (البقرة:٦٩) . فجاء الوصف باللؤلؤ في سياق إمتاع النفس بالنظر إلى أنفس الجواهر وأغلاها وأصفاها في دنيا الناس ، ليصف بها زينة أهل الجنة ، من الرجال والنساء والغلمان ، الذين يطوفون على المؤمنين في الجنة ، فتستمتع النفس بالتزيّن والتحلي من ناحية ، وتستمتع العين بهذا الحسن الممتع في وجوه الحسان والغلمان ، الذين شُبهوا باللؤلؤ في صفائه وبياضه ، كما في قوله تعالى : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا

﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (فاطر:٣٣) ، وإمتاع العقل والخيال في تشبيه الحور باللؤلؤ في قوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ (الواقعة:٢٢،٢٣) ، وتشبيه الولدان بـه في قوله : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾(الإنسان:١٩).

وبذلك يحقق الحديث عن البحر في القرآن متعة العقل والنفس ، ويستجيب لأشواق الجمال،بالقدر الذي يحقق للباحث متعة الوصول إلى الحقائق العلمية، والوقوف على ما أودع الله فيه من المنافع الحسية والمعنوية .

أما المرجان فقد ورد في القرآن مرتين صريحًا في سورة واحدة ، هي سورة الرحمن : في المرة الأولى أثناء الحديث عن استخراجه مع اللؤلؤ من البحر ، والثانية في وصف الحور العين بما يدل على الحسن والبهاء ، وهو قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ كما أشرت إليه سابقًا .

ويبقى موضعان ورد فيهما اللؤلؤ والمرجان دون تصريح تحت اسم الحلية ، في قوله تعالى من سورة فاطر : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (فاطر:١٢) .

وقوله في سورة النحل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (النحل:١٤) . ولما كان البحر اسم جنس يطلق على الملح والعذب ، وكان المرجان لا يستخرج إلا من الملح ، عدل القرآن عن التصريح بهما إلى التعبير بالحلية ، ليكون لكل بحر حليته ، دون تصادم مع حقيقة أن المرجان موطنه البحار ، لا العذب من الأنهار .

وهكذا يثبت القرآن أنه معجز في كل ما تناوله من أسرار الكون ، وأن أحدًا لا يستطيع أن يجد فيه تضاربًا مع ما يكتشفه العقل البشري من حقائق الكون والوجود ، إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢).

* * *